حكايات نحبها جميعاً

٢

بخٍ..بخٍ سعدٌ وحلمٌ

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

تشْجِيعٌ.. لا مَثِيْلَ لَهُ!!

عَكَفَتْ (نَاهدٌ) في غُرْفَتهَا.. تُعيدُ قِراءةَ مَا كتَبتهُ عن السيدةِ آمنة.. وَكانَتْ تَحذفُ بَعضَ الكَلماتِ أحياناً، وتستبدلُ بَعضَ العِباراتِ بِعبارةٍ أُخرىٰ.. وَلمّا عادَ وَالدهَا الأُستاذُ (نَاجي)، وَرأَىٰ النُّورَ فِي غُرْفَتِهَا.. تَساءَلَ ما هِيَ حِكايَةُ (نَاهد)؟ لعلَّ أَمراً ما يشغلُ بالَها؟!

فَتقدَّمَ من بابِ غُرْفَتِهَا، وقَرَعَ البَابَ بِكُلِّ لُطفٍ وَهُدوءٍ..

فَتظاهَرْت (نَاهدٌ) بِالنَّومِ.. ولكنَّ الأُستاذ عادَ

فقرعَ البَابَ ، ثُمَّ ناداهَا بِصَوْتٍ مُنخَفِضٍ: مَا لكِ يا بُنَيَّتِي.. لَقدِ انتصفَ اللَّيلُ ومَا زِلْتِ مُستيقظةً افتحِي البَابَ... فأنا أُريدُ أَنْ أسلِّمَ عَليكِ.

وَعندَئذٍ قَامَتْ (نَاهدٌ) من سَرِيْرِهَا.. وفَتَحتِ البابَ لوالدها.. ودَنَتْ منهُ فَقَبَّلَتْهُ.. وهيَ تَقولُ: لا شيءَ يا والِدي.. إلاّ أَنِّي أُراجعُ حكَايَتِي الَّتي كَتَبْتُها البَارحةَ.. فَشكراً لكَ لأنَّكَ أَرْشَدْتَنِي إلىٰ تِلْكَ المَكتبةِ التَّاريخيَّةِ ، حَيثُ وجدتُ فِيها المَراجعَ الكَثيرةَ.. وَبالفِعْلِ يَجدُ الإنسانُ فيهَا مُتعةً لا مَثيْلَ لَهَا.

فتهلَّلَ وَجهُ الأستاذِ... وتمتمَ بِكَلِمَاتٍ فَهمتْ (نَاهدٌ) بَعضاً مِنْهَا:

حَقاً كمَا كَانَتْ والِدَتِي رَحِمَها اللهُ تَعالى تَقولُ (فَرْخُ البَطِّ عَوَّامٌ..!).

وَقفزتْ (نَاهدٌ) إلى حَقِيْبَتِها وَأخرَجَتْ بعضَ الأوراقِ ، ثمَّ رَتّبتهَا حَسْبَ التَّسلسلِ ، وَقالَتْ لِوالِدهَا: هَذا حَصَادُ مُطالعَاتِي البَارحَةَ، وَسَأُتابعُ ذلكَ ، حتَّى يتكوَّنَ لديَّ رَصِيدٌ لا بأسَ بهِ مِن الحِكَاياتِ التُّراثيَّةِ ، وخاصَّةً ما يتعلَّقُ بالنِّساءِ ، عَسىٰ أَنْ يَكْتُبَ اللهُ لِي التَّوفيقَ وَالسَّدادَ ، لأكونَ خادمةً لدينِ اللهِ..

أَخذَ الأُستاذُ (نَاجِي) الأَوراقَ وراحَ يَقْرَأُ فِيهَا حِكَايَةَ السَّيدةَ آمنة ، فشدَّهُ الأسلوبُ الجذَّابُ.. ثُمَّ أَخرجَ من جيبهِ قَلماً وسجَّلَ بعضَ المُلاحظَاتِ على القصَّةِ ، ثُمَّ رَفعَ رَأْسَهُ وقالَ:

حَبيبتي نَاهدٌ! هذهِ أَوَّلُ تجاربِكِ في هذا المَيدانِ ، فمَا عَليكِ إلاّ المُثابَرةُ وَالمُتابعةُ وَلا تَسْقُطي من التَّجربةِ الأُولىٰ ، ولا تَسْمَعي إلى المُثبِّطينَ.

وليكُنْ رَائدَكِ في ذلكَ مَرضَاةُ اللهِ سُبحانَهُ والنُّصْحُ لعبادهِ ، وتقْدِيْمُ ما أمكنَ من المَعْلوماتِ المُفيدةِ ، ولا تلتفتي إلىٰ ما يقولهُ النَّاسُ ، فَدائِماً وَأَبداً هُناكَ صِراعٌ بين الخَيرِ وَالشَّرِّ ، وَلا حلَّ لنا وَلأجيالنَا القادِمَةِ إلاّ بِالتَّمسُّكِ بالمنهَجِ القَويمِ ، سَواءً غَضبَ النَّاسُ أَمْ فَرِحُوا ، فالقَضِيَّةُ ليستْ إلاّ كَمَا قالَتِ السَّيدةُ رابعةُ العَدَويَّةُ وهي تَتَمثَّلُ قول الشُّعراء القُدامَى:

فليتَكَ تَحلُو والحَياةُ مَريرةٌ

وَليتكَ تَرضَى وَالأنامُ غِضَابُ

وَليتَ الذي بَينِي وَبينكَ عَامِرٌ

وبَينِي وبينَ العَالَمِينَ خَرابُ

إذا صَحَّ مِنْكَ الودُّ فالكلُّ هَيِّنٌ

وكلُّ الذي فَوْقَ التُّرابِ تُرابُ

ثُمَّ أَخْرجَ الأُسْتَاذُ من جيبهِ نُقُوداً ووضَعَها

في يدِ ابنتهِ ، وقالَ: هَذهِ بَعضُ النُّقودِ لتشتري بعضَ حَاجِياتِكِ الخاصَّةِ ، وتنتبهي إلىٰ كُلِّ ما لهُ عَلاقةٌ بِالقرَاءَةِ وَالكِتَابةِ.. وخاصَّةً الأدوار التَّاريخيةِ ولا تَنْسي أَنْ تُسجِّلِي كُلَّ المُلاحظاتِ والاقتراحاتِ ، فَفِي ذلكَ نَفعٌ كبيرٌ بِإذنِ اللهِ تَعالى.

أَشهَرُ مَراضِعُ العَربِ..

وَبعدَ نَومٍ عَميقٍ ، استَيقَظتْ (نَاهدٌ) علىٰ صَوتِ أذانِ الفَجْرِ ، فتوضَّأَتْ ثُمَّ وقفتْ بينَ يَدي اللهِ تَعالى تُصلِّي.. وَكانَتْ فِي سُجُودِهَا تَدعُو اللهَ أَنْ يُوفِّقهَا لإخراجِ هذا العَملِ إلىٰ النُّورِ ، وَأَنْ يَجعلَها من المتفوِّقاتِ وأَنْ يفتحَ بينهَا وبينَ المُوحِّدينَ ، ليعيشَ النَّاسُ في أَمْنٍ وَسَعَادَةٍ وطُمَأنينةٍ..

وفي تمامِ السَّاعةِ التَّاسعةِ انطَلقتْ إِلَىٰ السُّوقِ ، فاشترتْ دَفْتَراً صَغِيراً للمُلاحَظاتِ ، ودَفْتَراً كَبيراً لكتابةِ الحِكَاياتِ... ودَفتراً كَبِيراً آخرَ لِتَكْتُبَ فيهِ الحَكَاياتِ الطَّريفةَ.

ثُمَّ سَارَتْ إلى المَكْتَبَةِ التَّاريخيَّةِ.. وطلبتْ بعضَ المَراجعِ والمَصَادِرَ التي تتحَدَّثُ عن مُرْضِعَةِ رَسولِ اللهِ ﷺ.

وَبَعْدَ استِغْرَاقٍ وَبحْثٍ بَينَ المَرَاجِعِ والمَصادرِ.. نَقَلتِ الكَثيرَ من المُلاحظاتِ وكوَّنَتْ فكرةً لا بَأسَ بها عَنِ السَّيدةِ (حَليمة السَّعديَّة)!!

وكانتْ هَذهِ الحِكَايَةُ.

كَانَ من عادَةِ عَرَبِ الجَاهليَّةِ أَنْ يُرْسِلُوا أَطفَالَهُمْ إلى البَادِيَةِ ، وذلك بِهَدَفِ أَنْ يَعِيشَ الطِّفلُ الجَوَّ الصَّافِي ، وأَنْ يعتادَ على الخُشونَةِ

والقَساوَةِ ، وأَنْ يتدرَّبَ على القِتَالِ والرّمْحِ والسَّيْفِ وما إلى هُنالكَ.

وكانَ من عادَةِ المُرْضِعاتِ أَنْ يأتينَ إلىٰ أسواقِ مكَّةَ لتأخذَ كُلُّ واحدةٍ مِنْهُنَّ طِفْلاً من أَجْلِ إرضَاعِهِ..

وذَاتَ يَـوْمٍ حَـدَثَ مَـعَ السَّيـدةِ (حَليمَـة السَّعديَّة) ما رَوَتْهُ هِيَ بِنَفْسِهَا:

خَرجتُ فِي نِسوةٍ مِنْ سَعْدٍ عَشرة يَطْلُبْنَ الرُّضعاءَ ، في سنةٍ جدباءَ ، ومعنا ناقةٌ كَبيرةُ السِّنّ ، وكانَ عندِي أولادٌ يَرضَعُونَ مِنْ ثَديِي... ولمَّا وَصَلْنَا مَكَّةَ ، فمَا من امرأَةٍ إلاّ وَقَدْ عُرِضَ عَليهَا رَسولُ اللهِ ﷺ فتأباهُ إذا قِيلَ لَها أَنَّهُ يَتيمٌ ، وذلكَ أنَّا كُنَّا نَرْجُو المَعروفَ من أَبِي الصَّبيِّ ، فكنَّا نَقُولُ: يَتِيمٌ! وما عَسىٰ أَنْ تَصْنَعَ أُمُّهُ وجدُّهُ؟

فكنَّا نكرهُ لِذلكَ ، فمَا بَقِيَتِ امرأةٌ مَعي إلاّ أَخذَتْ رَضِيعاً غَيري ، فلمَّا أَجمعنا الانطلاقَ ، قلتُ لِزَوْجِي: واللهِ إنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَرْجِعَ من بينِ صَواحِبي ولمْ آخُذْ رَضِيعاً ، واللهِ لأذهبنَّ إلىٰ ذلكَ الرَّضيعِ اليَتيمِ فلآخذنَّهُ!

قالَ: لا عليكِ أَنْ تَفعَلِي ، عَسىٰ اللهُ أَنْ يَجعلَ لَنا فِيهِ البَرَكَةَ.

قالَتْ: فَذهَبْتُ إلىٰ جَدِّهِ (عَبد المُطَّلبِ) ، فاستَقْبَلَنِي ثُمَّ سَأَلَنِي:

يا هَذِهِ مَنْ أَنْتِ؟

فَقُلْتُ: امرأةٌ مِنْ بَنِي سَعْد ، واسمي حَليمَةُ.

فَتبسمَّ (عبدُ المطَّلب) وقال: بَخٍ بخٍ ، سَعدٌ وَحُلْمٌ ، خصلتانِ فِيهمَا خَيرُ الدَّهر ، وعزُّ الأَبدِ.

فأعطاهَا الرَّضيعَ.. وأوصاهَا بهِ كَثِيراً ، ثُمَّ

انحنَى على ابنِ ابنهِ وقبّلَهُ مُودِّعاً، وَهُوَ لا يدري ما الذي يُخبّئهُ لهُ المُستقبلُ.

يا لَها مِن بَركاتِ الحَبيبِ صَلواتُ اللهِ عَليه!!

وَتابعتْ (ناهدٌ) أَحداثَ ما جَرىٰ معَ قَبيلَةِ بَني سَعْدٍ، وذلكَ بعدَ أَنْ حَلَّ فِيْهِمُ الغُلامُ اليَتِيمُ..

إنَّهُ أَمْرٌ عُجَابٌ!! لَقَدْ حَلَّتِ البَرَكاتُ في كلِّ شَيءٍ، عادَتِ الأغنَامُ من المَراعِي المُجْدِبَةِ فإذَا بالضُّروعِ قَدِ امتلأَتْ باللَّبنِ..!

وَهكَذا كانَ حالُ (حَليمةَ) فكانَتْ لا تستطيعُ إرضاعَ أكثرَ مِنْ طِفْلٍ، لكنَّها الآن تَستطيعُ إرضاعَ عَددٍ كَبيرٍ مِنَ الأطفالِ!!

وَبقيَ الرَّضيعُ أكثَرَ من سَنتينِ، وكلّما مَرَّ

يومٌ مِنْها كانَتْ (حَلِيْمةُ) تُحبُّ هذا الرَّضيعَ أَكْثرَ.. وتَرَى أنَّ في المَسأَلةِ سِرّاً..

وَبعدَها عَادَتْ بِهِ إلى مكَّةَ المكرَّمةِ ، وَكم كَانَتْ فَرحةُ والدتهِ السَّيدة (آمنة) بعَودتِهِ؟ لقدْ ضَمَّتهُ إلى حضْنِهَا.. وَراحَتْ تَشمُّهُ.. وهوَ ينظرُ إليهَا نَظرةَ البَراءةِ.

وطلبتْ (آمنةُ) مِنْ (حَليمةَ) أَنْ تَعُودَ بالرَّضيعِ إلىٰ البَادِيَةِ ، حتَّى يشبَّ ويكبرَ ، ثُمَّ أَوصتهَا بالاعتناءِ بهِ و..

وَبِالفِعْلِ ، بقِيَ الغُلامُ في ضيافةِ بَني سَعدٍ زُهاءَ خمسِ سنواتٍ... حيثُ كانَ لهُ أُمورٌ عَجيبةٌ.. ، حتّى إنَّ زوجَ (حَليمةَ) قالَ لهَا ذاتَ مرّةٍ: لعلَّ لهٰذا الغُلامِ شَأناً ما؟!

مع سيِّد الوَفاءِ ﷺ

ودَارَ الزَّمنُ دَوْرَتَهُ ، وَكَبُرَ الغُلامُ . وأَصْبَحَ شَاباً ، ثُمَّ تزوَّجَ من السَّيدةِ خَديجة رضيَ اللهُ عَنْها.. فَكَانَ يحدِّثُها عن السَّيدة (حَلِيمةَ) كَثيراً ، وعمَّا يذكرهُ من أمورٍ في البَادية... ، حتَّى إنَّ (خَدِيْجَةَ) تمنَّتْ أَنْ تَلتقي بِحَليمةَ حتَّى تُكافِئها.

وَيشاءُ اللهُ أَنْ تَتَحقَّقَ أُمنياتُ (خَديجةَ) ، فذاتَ ليلةٍ كانَتْ تَسيرُ معَ زَوْجِها رسول الله ﷺ إذا بِهِ يَلْمَحُ مُرضعتهُ حَليمةَ ، فَيسرِعُ إليهَا وهُوَ يقولُ: «أُمِّي أُمِّي».

وَعندَما عَلمَتْ (خَديجَةُ) أَنَّ هذهِ هيَ (حَليمةُ) اعتنقتهَا وهيَ تَقولُ: أُريدُ أَنْ أردَّ شيئاً من الجَميلِ الذي أسديتيهِ للحَبيبِ مُحمَّدٍ يومَ

كَانَ فِي بادِيتِكُمْ.. فلطالَما حدَّثني عَنْكِ ، وأَثنَىٰ عليكِ ، ودعَا اللهَ لكِ بأنْ يهدِيَكِ إلى الإسلامِ.

فشَكَتْ (حَليمَةُ) الجدْبَ والقَحْطَ ، فمَا كَانَ مِنْ (خَدِيجةَ) إلاّ أَنْ أَمرَتْ خادِمَها بأنْ يَدْفعَ إِلَيْها أَربعينَ شاةً ، فَسُرَّ النَّبيُّ صلواتُ اللهِ عليهِ بِذَلِكَ..

إلى رِحَابِ الخُلُودِ يا حَلِيْمَة السَّعديّة

ولمَّا شاءَ اللهُ لها الهِدايةَ ، جَاءَتْ إلىٰ المُصْطَفَى ﷺ ومَعَها زَوْجُهَا وَأَوْلادُهُمْ: عَبدُ اللهِ ، وأَنيسَةُ ، والشَّيماء ، وأَعلنُوا إسلامَهُمْ...

تقولُ كُتبُ الأحاديثِ والسِّيرةِ: إنَّ السَّيدةَ حَليمةَ رَوتْ بَعضَ الأحادِيثِ النَّبويّةِ وبعضَ تفصيلاتِ السِّيرة..

وَهكذا ، عَاشَتِ السَّيدةُ (حَليمةُ) فِي المُجْتَمَعِ المُسْلِم ، حيثُ القَائِدُ الأَعْظَمُ هُوَ الرَّسولُ ﷺ ، وحيثُ العَاصِمَةُ هِيَ المَدِينَةُ المنوَّرةُ...

حتَّى إذا مَا اكتملتْ أيّامها.. وجَاءَها مَلكُ المَوْتِ... أَسْلَمَتِ الرُّوحَ إلى خَالِقِهَا.. فَدُفِنتْ فِي مَقبرةِ البَقِيعِ ، فَرضِيَ اللهُ عَنْها وأَرضاها..

وَسَجَّلتْ (نَاهدٌ) فِي نِهَايَةِ الحِكَايَةِ قَولَهُ تَعالى: ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾

[هود: ١٠٨].

وَآخر دعوانا أنِ الحَمدُ للهِ رَبِّ العالمين